الرقابة الاسرائيلية قيدت أمية جحا والبخاري يعتبر الشؤون الاجتماعية ترفا امام واقع القمع:

فن الكاريكاتير الفلسطيني تهيمن عليه السياسة وقضايا مواجهة الاحتلال

«توازن» لبهاء البخاري

«ديمقراطية امريكية» لامية جحا

لندن ـ «القدس العربي»:

من سلوى علينات:

يمكن للكاريكاتير السياسي ان يثير اهتمام المشاهد والقارئ اكثر مما تستطيعه احيانا الصورة والمقالة المكتوبة. فمن خلال معالجته لقضايا سياسية، اجتماعية وثقافية، يعكس الكاريكاتير الافكار الرائجة في المجتمع وذلك من خلال سخريته الناقدة واللاذعة للمواقف والشخصيات من صانعي القرار. وفي محاولة للتعرف على اثر فن الكاريكاتير، والرسالة التي يطمح رساموه بتوصيلها، والموضوعات التي يتأثرون بها ويعملون على تكييفها، لنقد السياسة والمجتمع، حاولنا استطلاع اراء اثنين من رسامي الكاريكاتير الفلسطينيين، مع الاخذ بعين الاعتبار ان تجربة الكاريكاتير الفلسطيني في الداخل، محكومة اولا برؤية الفنان لوضعيته كرهينة للاحتلال، ورؤيته للوضع القائم خاصة بعد قيام السلطة الوطنية. وتجربتهم بالتالي تختلف عن التجربة المعروفة لاشهر رسامي الكاريكاتير العرب، الشهيد ناجي العلي، الذي جسد في شخصيته «حنظلة» الهم الفلسطيني، والعربي عامة.

يقول رسام الكاريكاتير بهاء البخاري، المعروف في صحيفة «الايام» الفلسطينية اليومية «ان الكاريكاتير هو فن الاختزال الفني للتعبير عن فكرة ما». ويضيف قائلا «ما من شك ان رسام الكاريكاتير يعبر بطبيعته عن هموم مجتمعه وشعبه. وانا شخصيا اعبر عن هموم الشعب الفلسطيني في ظل الممارسات القمعية لالة الحرب والاحتلال الاسرائيلي. وهذه هي وسيلتي التي اجيدها».

على العموم يكون الكاريكاتير السياسي ساخرا بصورة موجزة غير مصطنعة والكوميديا السوداء التي يعيشها مجتمع ما عادة ما تناقض المثل والطروحات النموذجية. يقول البخاري «الكاريكاتير يطرح المفارقة بين الموجود والمرغوب وهذا الهاجس موجود منذ ان بدأ الانسان بالتعبير عن نفسه وهذه هي الرئة التي يتنفس من خلالها المجتمع».

وقد اوجدت الصحافة العالمية والعربية مكانا هاما للكاريكاتير على صفحاتها. وعبرت الهزة الشعبية في العالم الاسلامي المستاءة من الصور الكاريكاتورية عن الرسول محمد عليه السلام، التي نشرت في صحف دينماركية وانتقلت لصحف غربية اخرى في الشهر الماضي، عن الاثر الكبير للكاريكاتير على المشاهد وكيف له ان يثير عنده تفاعلات عدة.

ويرى البخاري ان أداء رسم الكاريكاتير في العالم العربي ناجع ولكنه بدون تنظيم. ويضيف «لا توجد نقابة او تنظيم لرسامي الكاريكاتير تساعد على انتشار هذا الفن. وللاسف الشديد نجد ان العمل النقابي في الاقطار العربية يعاني من تقييد الحريات وتخضع النقابات الموجودة للصراعات السياسية الامر الذي يفقدها المضمون».

ويقول «السياسة تقيد الكاريكاتير وتهيمن احيانا على اعمال الكاريكاتير الصراعات الحزبية التي تنعكس عليه سلبيا». مشكلة اخرى يعرضها البخاري هي قلة المعارض الفنية للكاريكاتير محليا وقطريا في العالم العربي. ويقول «نحن نفتقد للوعي السياسي لتطوير الكاريكاتير. يشتهر رسام الكاريكاتير العربي من خلال المعارض العالمية فقط».

يمكن اعتبار رسام الكاريكاتير السياسي صحافيا يعبر عن فكرة ما من خلال ريشة الرسم. وهو لا يستطيع التعبير بدون ثقافة والاطلاع على ما يدور حوله وكلما لامس روح المجتمع كلما كان واقعيا. ويتناول البخاري كل المواضيع المحلية، القطرية والعالمية ويحركه حدس الصحافي الذي يبحث عن العنوان الرئيسي في اليوم التالي. وبذلك يصبح رسام الكاريكاتير مركز استطلاع محلي متنقل.

يرى البخاري مشكلة في عدم تناوله القضايا الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني ويراه «نوعا من الترف» ويقول «لا يمكنني الحديث عن قضايا الزواج والطلاق وانا اقارع الاحتلال الذي طالت ممارساته الوحشية البشر والشجر وحتى الحجر. اني اتناول الذل اليومي على الحواجز والجدار وما يجول في رأس المواطن الفلسطيني وهو يواجه واقعه المرير».

بهاء البخاري، من مواليد 1940. بدأ عمله في رسم الكاريكاتير في الصحافة الكويتية عام 1964 حتى عام 1989 ثم انتقل الى تونس وليبيا وصحافة المهجر. بين السنوات 1994 حتى 1999 حيث عمل في صحيفة «القدس» اليومية الصادرة في القدس المحتلة عند عودته الى فلسطين.

الفنانة الثانية، هي امية جحا رسامة كاريكاتير فلسطينية من مواليد غزة عام 1972، زوجها الاول شهيد وهي ام لطفلة عمرها ثلاث سنوات. وتعمل اليوم في صحيفتي «الرسالة» (التابعة لحماس) و«الحياة الجديدة» (التابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية). وعملت جحا في صحيفة «القدس» بين السنوات 1999 حتى 2002.

وكان احد اسباب تركها للصحيفة الصادرة في القدس المحتلة هي خضوع الجريدة للرقابة العسكرية الاسرائيلية التي منعت في كثير من الاحيان نشر كاريكاتيراتها. تقول جحا «كنت اشعر بقيود جمة من جانب الرقابة العسكرية الاسرائيلية واضطررت لترك العمل هناك».

اما في صحيفة «الحياة الجديدة» تقول جحا «رغم انتقادي اللاذع للسلطة الفلسطينية الذي طال الرئيس محمود عباس والفلتان الامني والفساد وغيرها فلم يوجه لي اي مسؤول اي انتقاد ولم امنع من نشر اي كاريكاتير».

ولا ترى جحا مانعا من عملها في صحيفتين باتجاهين سياسيين مختلفين تماما، وتقول «لست حزبية. اتناول الهم الوطني بشكل عام. وهذا السبب في محبة كل التنظيمات لي».

وتضيف «اذا تحزبت سأزيد القيود على عملي الصحفي. انتقد الجميع من خلال طرحي موضوعات عدة المقاومة، محاربة الفساد، الوحدة الوطنية وغيرها».

وترى جحا ان الكاريكاتير اقوى من الكلمة والصورة لانه يمس الحياة اليومية للمواطن لو كانت الرسومات عادية ومتملقة لما حاز رسام الكاريكاتير على شعبية. وتضيف «استلهم الفكرة بخروجي من البيت في الشارع وانا في السيارة. وبين الناس تنبع الاخبار. وهناك اهمية ايضا لمتابعة الاخبار في وسائل الاعلام المختلفة».

تقول جحا «احيانا لا استطيع ان ارسم يوميا للجرائد. وهذا ليس عيبا لانه اذا اصبح هم الرسام ان يعبئ مساحة من الورق فانه سيخسر مضمونه وجمهوره لاحقا».

ترى جحا ان هناك عدة معوقات على عمل رسام الكاريكاتير الفلسطيني واهمها الاحتلال، وتقول في هذا الصدد «الاحتلال الاسرائيلي يمنع حرية التنقل بين اطراف البلاد ويساعد هذا على كبت الفنان ويصبح تفكيره محدودا بينما لو انطلقت لطرحت موضوعات اوسع».

وتعاني جحا من انتقادات تعتبرها «سلبية» وليست من اجل البناء الذاتي واحيانا بسبب كونها امراة ترسم الكاريكاتير. تقول جحا «تصلني رسائل فيها الكثير من الغيرة. وللاسف المنتقدون من ابناء الوطن وهم غير معنيين بنجاحي. هذا يزيدني اصرارا على التقدم مع ان ذلك احيانا قد يثبط العزيمة».

مختص بقضايا المجتمع والثقافة والسياسة

ويل كيمليكا: تعامل الدول مع أقلياتها لم يعد شأنا محليا

دمشق ـ «القدس العربي»

ـ من انور بدر:

حاول البروفيسور «ويل كيمليكا» في المحاضرة التي ألقاها على مدرج مكتبة الأسد بدمشق أن يلقي الضوء على الاتجاهات الفكرية في الدول الغربية أو الديمقراطيات الغربية التي تبحث عن قواسم مشتركة للتعامل مع الأقليات في العالم بشكل عام وفي الغرب بشكل خاص.

والبروفيسور كيمليكا هو أستاذ كرسي في الفلسفة السياسية بجامعة كوين في كندا، حائز على شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد، وله عدد كبير من المؤلفات أهمها: الفلسفة السياسية المعاصرة، الليبرالية والمجتمع والثقافة، المواطنة في بلد متعدد الثقافات، المواطنة في المجتمعات التعددية، كما حاز على عدد كبير من الجوائز الكندية والعالمية نتيجة لأبحاثه المعمقة في مجال المواطنة. وهو يزور سورية لأول مرة ملقيا مجموعة محاضرات في الجامعات السورية وفي مكتبة الأسد ضمن «أيام الثقافة الكندية» التي تقيمها السفارة الكندية بدمشق، تحت عنوان المواطنة. وقد التقته «القدس العربي» وكان الحوار التالي معه:

ويل كيمليكا (القدس العربي)

■ هل أنت مهتم فقط بالأقليات في المجتمعات الغربية أم أيضا مهتم بالأقليات في الدول الأخرى؟

■ **بدأت الاهتمام بوضع الأقليات في كندا وحقوقها، ثم انتقلت إلى المقارنة ما بين وضع الأقليات في كندا ووضعها في الدول الغربية الأخرى، ولكن في الخمس سنوات الأخيرة بدأت أدرس إمكانية تعميم النماذج الغربية بالتعامل مع الأقليات من قبل المجتمع الدولي في العالم أجمع.**

لقد وصل تدويل العلاقات مع الأقليات في الدول حدا ما عاد بالإمكان الرجوع عنه. ولقد انتهت إلى الأبد مقولة إن مسألة تعامل الدول مع أقلياتها هي قضية محلية وليس لها ما يهم المجتمع الدولي. ولا شك أن طريقة معاملة الأقليات ستكون أكثر فأكثر موضوعات للتدقيق من قبل المجتمع الدولي، وسوف يتم تقويمها وفقا للخطاب والمقاييس الدولية. وإنه لمن الأهمية بمكان أن نقرر ما إذا كانت القيم والفرضيات التي تركز هذه الخطابات والمقاييس هي قابلة للتطبيق في آسيا أو ما إذا كانت تعمم بشكل زائف التجربة الغربية.

■ هل يمكن لنا أن نعرف بشيء من التفصيل ملامح نظريتك المعروفة بتجديد الليبرالية؟

■ **بعد الحرب العالمية الثانية وبشكل خاص أثناء الحرب الباردة كان هناك محاولات داخل الغرب لتغيير وجه الليبرالية، إذ كانت الدول الغربية في حالة صراع مع الدول الاشتراكية السابقة، وهذا ما أدى إلى قمع بعض الوجوه الليبرالية القديمة مثل الوجه الاجتماعي لليبرالية والوجه الجماعي لليبرالية لان هذه الأفكار بشكل أو بآخر مرتبطة بالشيوعية، فلكي تظهر الليبرالية أنها مختلفة عن الشيوعية خففت إلى حد كبير من المظاهر الليبرالية الأصلية التي قد تتماثل أو تتشابه أو يساء فهمها باعتبار أن لها صلة بالشيوعية، ولذلك ما أعنيه بتجديد الليبرالية في الحقيقة هو عودة إلى الليبرالية الأصلية قبل أن تشوه في فترة ما بعد الحرب الكونية الثانية وخلال الحرب الباردة، وهذه الليبرالية فيها مجال كبير لقضايا التعددية والتنوع والغنى والاهتمام بثقافة الآخر.**

■ ارتبطت الليبرالية لدينا بمفهوم الاستعمار والتوسع الكولنيالي، كيف يمكن الفصل الآن بين هذا الفكر الجديد وما يحصل حاليا من توسيع للإمبراطورية الأمريكية وطروحاتها الاستعمارية؟

■ **يجب الاعتراف أنه تاريخيا كان هنالك بعض الليبراليين الذي كانوا يدعمون الاستعمار والتوسع الاستعماري، وهذا كان يتضمن بعض الأسماء الكبيرة في الليبرالية كجون ستيوارت ميل مثلا، الآن هناك مهمة كبيرة تقع على عاتق المثقفين الليبراليين وهي إزالة هذا الدعم الليبرالي للاستعمار في العالم ، فواجب المثقفين الآن هو الفصل بين الليبرالية ومفهوم التوسع الاستعماري، وتنقية الليبرالية من الاستعمار، وهذا يجب أن يتم على صعيد العلاقات الدولية كاعتراف الدول ببعضها البعض وإزالة ما علق من الشوائب الاستعمارية، ولكن يجب أيضا أن يتم على صعيد العلاقات الداخلية في كل مجتمع كتعزيز الديمقراطية والاختلاف والتعدد، ففي بلد ككندا مثلا هناك شكل من أشكال التوسع الاستعماري داخل كندا في طريقة التعامل مع الشعوب الأصلية، لا بد إذا من تنقية العلاقات الخارجية والداخلية من كل أخطاء الدول والاستعمار، وخاصة في التعامل مع الأقليات وحمايتها داخل البلدان الديمقراطية.**

■ هل هناك رابط بين دعوتك لتجديد الليبرالية وبين ما يسمى بالعولمة وتداعياتها؟

■ **أكثر نموذجين سائدين للعولمة هما النموذج الذي تقوده حاليا الليبرالية الجديدة المتمثل حاليا بإجماع الإدارة الأمريكية حول الجوانب الاقتصادية التوسعية، وهذه ليست لها علاقة بما ندعو إليه أو نعمل لأجله، فتجديد الليبرالية هو مفهوم مختلف تماما عن الليبرالية الجديدة، ولكن للعولمة جانب آخر يتجلى بمسائل: حقوق الإنسان والتعددية الثقافية وحقوق الأقليات .. وأنا أحاول الدمج ما بين تجديد الليبرالية وهذا الجانب الايجابي من العولمة.**

■ أي التركيز على الجانب الإنساني والاجتماعي والثقافي في العولمة؟

■ **بعض النظريين يميزون بين مصطلحين، العولمة المتوحدة أو المندمجة والعولمة غير المندمجة، فحسب الأول الوجه الذي يحاول إظهار أن العولمة يجب أن تقاد من الجهات التي بيدها السلطة والقوة (أمريكا مثلا)، والوجه الآخر الغير مندمج يقول إن العولمة هي العملية التي تقوم على تحجيم القوة والسلطة وإعطاء المزيد من الحقوق إلى الفئات المهمشة، وأنا أحاول هنا دمج الوجه الثاني للعولمة مع دعوتي لتجديد الليبرالية خاصة فيما يتعلق بحقوق الأقليات والتعددية الثقافية، فالعولمة يجب أن تعطي الفئات المهمشة حقوقها ودورها الاجتماعي والثقافي والسياسي في المجتمع.**

■ كيف تقيّم الأحداث الأخيرة في فرنسا أوما أطلق عليه انتفاضة المهمشين؟

■ **بداية فرنسا مختلفة عن كل الديمقراطيات الغربية فهي نموذج للمواطنة الجمهورية، تقوم على أساس علماني صلب متين مئة بالمئة، وغير قابل للمساومة، وهي ليست كذلك أو بنفس الدقة في أمريكا أو كندا أو بريطانيا، وبالتالي كانت حكومة فرنسا عاجزة عن إجراء أي حوار بينها وبين أية مجموعة متدينة، وسبب ذلك يعود للثورة الفرنسية، حيث كان العدو الأساسي لها هو الدين، فكان الخيار العلماني خيارا حاسما، وهي رفضت أي حوار مع المجموعات الدينية لمناقشة أمورها، كونها تعتبر هذا خرقا لنموذجها العلماني الجمهوري المتجذر لديها من مئات السنين.**

انطلاقا من هذا نجد تقصيرا في البحث: من هم الفقراء أو المجموعات الأكثر فقرا في فرنسا من أجل مساعدتها، بينما في الدول الأخرى (بريطانيا أو كندا أو أمريكا..) هنالك قانون يطالب بمساعدة المجموعات الأكثر فقرا أو المحتاجة أكثر، ولكن لكي تساعد هذه المجموعات لا بد من أن تحددها، وتقوم بإحصائيات لها، هذا الأمر غير موجود في فرنسا، الجميع يعرف أن الأفارقة في فرنسا هم الأكثر فقرا، ولكن ليس هناك إحصائيات لهم، وأنا ضد المفهوم العلماني الصريح الواضح الذي لا يميز نظريا على الأقل بين المواطنين من أي جهة كانوا.

حتى في مسألة المهاجرين نجد الاستثناء الوحيد في فرنسا، التي ما زالت تتمسك بسياسة هضم الوافدين ضمن ما يسمى «بالمواطنة الجمهورية». ومع ذلك فحتى هناك ـ في فرنسا ـ فإن اللغة الرسمية للحكومة حول قضية التعددية الثقافية تكاد تختفي أمام الأفعال الحقيقية التي تمارس على الأرض من احترام للأقليات والمجموعات الثقافية.

■ لكن المشكلة الأساسية اجتماعية وليست دينية وقسم من الأفارقة الفقراء ليسوا مسلمين ؟

■ **أنا موافق، وأحاول تفسير ما يجري، فليس هناك مؤسسات تقوم بالعمليات الإحصائية، لأن ذلك ضد الأيديولوجية الجمهورية، وليس لديها المدخل الذي يجعلها تميز الأقليات الأكثر فقرا والأكثر حاجة للمساعدة.**

فهناك إذا جانبان الجانب الواقعي المعروف والجانب الدستوري والقانوني الذي يمنع الحكومة من التدخل في هذه المشكلات.

■ لكن المفكر بيكو بارك شكك في نظريتك ؟

■ **يفترض السيد بيكو أنني أضع الليبرالية كشرط أولي لحل مشكلات الأقليات والتعددية الثقافية والمواطنة، وهذا الكلام غير صحيح، لأنه عندما يأتي مهاجرون من دول لا تعرف الليبرالية إلى دول ديمقراطية، فمن حق هذه الفئات المهاجرة أن تناقش كل القضايا بما فيها الليبرالية نفسها، وتتعرف على وجهة نظر الآخرين من أجل وضع كل الأفكار والنظريات على المحك، من أجل الوصول لحل نهائي وأخير لمشاكلهم، وأنا أوافق السيد بيكو على هذا الموضوع، لكنني أرى ضرورة أن يبلور الليبراليون وجهة نظر واضحة حول التنوع والتعددية الثقافية والمواطنة، لكي يحدث حوار ما بين طرفين ليبرالي وغير ليبرالي، وأنا أعمل على بلورة نظرية ليبرالية في التعددية والتنوع الثقافي.**

قـــص

الفنان

محمود قتاية*

■ ورد عليه.. فل عليه.. يا محيرني بسحر عينيه.. صلي عالنبي.. صلي عالنبي.. حصوة في عينك ياللي.. ما تصلي عالنبي!

كانت هذه هي بعض الكلمات، التي كان يبدأ بها الفنان الشعبي محمود شكوكو غناءه في الحفلات!

وهكذا سمعته أنا ورفقاء الصبا في الخمسينيات من قرننا الفائت يرددها، مقلدا شكوكو..

كان مسرحه شوارع بلدتنا الصغيرة التي تعيش في حضن النيل المتجه إلى رشيد.. ينساب صوته ذو الرنين الخاص والطعم المميز، الذي كلما استعدته أكاد أشم في اشتهاء رائحة الفول المدمس والطعمية والليمون المخلل، شاي مقهى محروس الممزوج بالنعناع في ليالي الشتاء..

ذلك الفتى ذو الوجه الأسمر في لون طمي النيل، ذو العينين الحانيتين، الشعر الخشن والجلباب البلدي الأبيض.. الملكوي دائما! النظيف دائما!

كان هو محمود شعيب، أكبر أبناء عم متولي شعيب، صاحب الفرقة النحاسية للموسيقى التي كانت تعرفها بلدتنا، تحيي مناسباتنا الوطنية وحفلات الزفاف، تتقدم مهرجان الحرفيين عند مطلع شهر رمضان الفضيل.

في الخمسينيات لم يكن التليفزيون قد ظهر في بلادنا، كان الراديو هو آخر ما وصلنا من مخترعات العصر، كان وجوده ببلدتنا محدودا.. لا نسمعه إلا من مقهى المعلم سيد عثمان الذي يرتاده كبار التجار، أو من نادي المركز بالقائم بجانب سراي الري على شاطئ النيل.

وفي مقهى عثمان ونادي المركز كان ثمن المشروب قرشين.. أي ما يماثل ثمن أربع مشاريب في المقاهي الأخرى، وهو ما كنا لا نستطيع تحمله بمصروفنا المتواضع الذي نحصل عليه من أهلنا الفقراء..!

محمود شعيب حل لنا المشكلة، بدلا من أن نذهب إلى النادي أو مقهى عثمان جاء هو إلينا.. جاء إلى مقاهينا الفقيرة المتواضعة، حيث نشرب واحد شاي أو واحد قهوة أو سحلب أو جنزبيل، المشروب بخمسة مليمات، جاء إلينا محمود شعيب يغني لنا بديلا عن الراديو غناءه الحي.. وصحيح لم يكن يأتي كل يوم فقد كان يتغيب عنا ليعمل بروفات أعماله حتى يتقنها، يرضى عنها قبل أن يقدمها.. إلا أنه كان يفاجئنا بالحضور وقد بلغ بنا الشوق إليه أشده يأتي ومعه دائما شيء جديد.. مرة أغنية لم نسمعها من قبل، مرة قصيدة زجل كتبها، ومرة رقصة أو أكروبات أعدها يؤديها أمامنا ببراعة ومهارة فائقة.

محمود شعيب يفعل هذا كله بعشق لا حدود له، أمتعنا بترديده أشعار بيرم التونسي وأبو بثينة.. وبين الحين والحين. بأدائه لأزجال من تأليفه، يقدمها بتواضع شديد، يسألنا إذا ما كانت قد أعجبتنا أم لا؟ ويصبح في أوج سعادته حين يدرك من نظرتنا، من تصفيقنا، من انفعالنا بما يقوله أو يغنيه أنه نجح. وأنه استطاع أن يمتعنا، يوصل إلينا رسالة تؤرقه، أو فكاهة تغسلنا، تنفض عنا الهموم!

حينئذ كنا نسمعه يدندن بكلمات صلاح جاهين:

يا مضروبين بالفن ياحنا
يا سهرانين منه الليالي
مانسلاهوش ولو اندبحنا
ده الفن عند صاحبه غالي
يا بوي..

وتمضي الأيام ونكبر، نقترب أكثر من محمود شعيب ونحن في بداية الشباب، نصادقه ويصادقنا ونحن في نهاية دراستنا الثانوية.. وكان يسعد بنا كثيرا ويمسك بنا كأن صداقتنا شهادة بأصالة فنه.. وأخذ يتبادل معنا كتب الشعر، الزجل، الأدب.. ويتصفح معنا المجلات الثقافية والفنية، ازدان محل أبيه بصور سيد درويش، أبو بثينة ومحمد عبد الوهاب وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وآخرين من أهل الفن والأدب..

وتمضي الأيام، نتقدم نحو الدراسة الجامعية، فنغادر بلدتنا الصغيرة إلى الإسكندرية.. منا من اتجه إلى الهندسة، منا من مضى نحو الدراسة الزراعية، أو الطب أو الصيدلة، لكني كنت ضمن من اتجهوا إلى دراسة الآداب.. فتعمقت صداقتي بمحمود شعيب!

كان الزمن يتقدم نحونا جميعا، لكن نحوه بالذات بدا كأنه يتقدم أكثر، يرسم خطوط السنين على جبهته.. وتناثر في شعره غبار طباشير الأيام! ومع ذلك وربما بسببه ازداد فنه خصوبة وحلاوة..

وبدأ يلحن لنفسه بعض الأغاني والأشعار، يؤديها في المناسبات الوطنية أو أعياد ميلاد الأصدقاء أو في حفلات الزفاف.. وأخذت أصابعه تداعب عودا قديما كان يقتنيه ولا يظهره لنا، فأفصح عن براعته في اللعب بأوتاره بعد أن ودع أكروباته القديم، التي كان يؤديها أمام المقاهي في ليالي شبابه وصبانا!

واتجه بعد ذلك إلى إحياء حفلات تقام في الساحة الشعبية، يؤدي بعض الأغاني من تأليفه وتلحينه، أو لكبار المطربين كعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ومحمد قنديل.. وكان أداؤه رائعا لأغنية محمد قنديل «بين شطين ومية عشقتكم عنيه.. يا غاليين عليه، يا أهل اسكندرية».

سمعتها آخر مرة منه وكنت في زيارة لبلدتنا.. أحسست به وهو ينظر إلي ويغني من قلبه كأنه يعبر لي عن امتنانه لقدومي من الإسكندرية، حرصي على سماع أغانيه.. ووجدته وهو يتجلى أمامي في روعة أدائه، يعود بي إلى مسرحه في الأرض البراح أمام مقهى محروس، أنا أسمعه يشدو بلا مكبر للصوت، في عذوبة نادرة!

في هذا اليوم الذي لن أنساه.. بعد أن انتهى من الغناء.. عانقته.. دمعت عيناه.. جلس بجانبي كان بيده كتاب رباعيات صلاح جاهين.. سألته:

ـ ألم تقرأ رباعيات جاهين بعد؟

ـ بالطبع قرأتها مرات. لكن دائما أحمل شعر صلاح معي، صحبته تؤنسني!

ـ ألا يؤنسك الآخرون؟

ـ بالطبع يستحوذ على قلبي شعر فؤاد حداد، سيد حجاب، أحمد فؤاد نجم وهذا الفتى القادم من الأرض الدافئة في الصعيد.. عبد الرحمن الأبنودي، لكني بعد أن أشبع منهم، أرتاح على صدر جاهين.. أتسمع وجيب قلبه، أرتمي في أحضانه.. فيغمرني حنان الوطن وأنا أقرأ شعره!

قلت: عظيم و... قاطعني متلعثما:

ـ أحلم بأن أغني في الإذاعة، أن أطل على الناس في التليفزيون.. ربما كان ما لدي فيه شيء من الفن أعطيه لهم! وكما يقول صلاح جاهين وكأنه يقصدني ويشجعني:

يا عندليب ماتخفش من غنوتك
قول شكوتك واحكي على بلوتك
الغنوة مش ح تموتك إنما
كتم الغنا هعو اللي ح يموتك
عجبي!

سكت.. وأطل الأسى من عينيه.. احترمت سكوته، غير أنه فاجأني بسؤاله:

ـ سمعت أنك تعمل الآن في الصحافة.. ألن تكتب عني..؟

قلت: نعم، بالطبع سأكتب عنك يا عم محمود.

فاضت عيناه بالدمع وشد علي وهو يعانقني وهمس:

ـ هل تعلم أني تعلمت كتابة النوتة الموسيقية!؟

ـ عظيم يا عم محمود.. أنت فنان رائع.. سأكتب عن ذلك أيضا!

ـ نظر إلي طويلا.. بدا أمامي كأنه يحلم.. ردد كلمات صلاح جاهين:

خلي المكنجي يرجع المشهد
عايز أشوف نفسي زمان وأنا شب
ومش عاجبني لا ملك ولا أب

عايز أشوف من تاني واتذكر
ليه ضربة من ضرباتي صابت؟
وضربة من ضرباتي خابت؟
وضربة وقفت بالشريط في وضع ثابت؟

مرت أيام.. شهور.. عامان.. بين الحين والحين، يمر طيفه بخاطري معاتبا.. يسألني:

لماذا لم تنفذ وعدك وتكتب عني؟

وأرد على طيفه.. عفوا.. اعذرني يا عم محمود، مصيبتنا في هذا الزمان.. الكسل والنسيان! أنا مخطئ وأنت كبير.. أكبر من قلمي. أنت أكبر من مقال وكتاب، ومع ذلك أعدك أنني سأكتب واكتب!

وفي يوم من الأيام.. جاء أخي إلى مكتبي بالصحيفة، قادما من البلدة، أخبرني عن أحوالها ثم وجدته يتوقف فجأة عن الحديث، أطل من عينيه حزن كبير فسألته:

ماذا وراءك؟

قال أخي: لم أكن أريد أن أقول..!

لقد مات عم محمود شعيب، كان قد جاء إلى مقهى محروس يحمل عوده، جلس في مقعده المعتاد، أحضر له عامل المقهى كوب الينسون، على حين كانت أصابعه تداعب أوتار العود، غير أن بعض رواد المقهى من الشباب طلبوا من العامل أن يفتح التليفزيون.. تباطأ العامل في تلبية رغبتهم وهو ينظر إلى عم محمود.. فما كان من أحدهم إلا أن قام وفتح التليفزيون..

كان عم محمود يرقب ما يحدث صامتا، فظهر بالتليفزيون صورة مطرب شاب، تتدلى من صدره العاري الحلي والسلاسل، على جبهته ينسدل شعره الغزير.. وحين بدأنا نستمع إليه يغني بكلمات ركيكة بصوت ضائع في ضجيج الموسيقى الصاخبة التي تصاحبه، حوله فتيات يرقصن في مجون وابتذال، قام عم محمود غاضبا يصرخ:

«لا.. هذا كلام فارغ.. هذا ليس فنا! هذا عبث ونشاز».

وسقط العود من يده.. ومات!

---

* قاص من مصر